أفياءُ الذُّروة

وقفات تدبرية

بقلم فضيلة الشيخ
أحمد الجوهري
حفظه الله

أفياء الذروة

قوله تعالى: {ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء..}

أحياء بشهادة الله، لم يسلب الحياة بل أعطي حياة هي أفضل منها وأسعد، وشهادته وقود للحق يحميه وغذاء لحركة الإيمان يمدها ويقيمها.

{ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات..}

ربما كان ذلك صعبًا، لكن حين يعاين هو ما أعد الله له لن يقول إن الذي رآه موتًا، وحين يعلم ذووه بذلك لن يعتبروا موته مصيبة بل سيرونها منحة تتطلب الشكر.

{ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات..}

نهى بشأنهم عن شيئين:

- القول، في هذه الآية.
- والحسبان، في قوله تعالى: {ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتًا}.

{ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء..}.

أما الروح فتنقل إلى هناك، وأما الجسد فيعوض بجسد مناسب للجنة ليكون وسيلة إلى نعيمها، وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "أرواح الشهداء في أجواف طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت ثم تأوي إلى قناديل معلقة تحت العرش".

{ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات..}.

القتل في سبيل الله عز وجل وحده هو الجهاد، وهو الذي تكون فيه وحده الشهادة، وهو وحده الذي تكون فيه الحياة للشهداء.

{ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء}.

ولعلهم لأجل هذا لا يغسلون كما يغسل الموتى، ولا يكفنون في غير ثيابهم ولا يصلى عليهم كما يفعل بالموتى، لأنهم أحياء.

{بل أحياء}

الحياة محبوبة للناس، والمحبوب لا يتركه العاقل إلا لمحبوب أعلى منه وأعظم.

ولهذا يبشرهم الله سبحانه وتعالى بأن الحياة لن تفوتهم، بل يعوضون عنها بحياة أعظم وأفضل وأكمل.

{ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء}.

يمتعون برزق بدني، وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إنه لما أصيب إخوانكم يوم أحد؛ جعل الله أرواحهم في جوف طير خضر، ترد أنهار الجنة؛ تأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم، فقال الله تعالى: أنا أبلغهم عنكم".

ورزق روحي، وهو الفرح والاستبشار وزوال كل خوف وحزن.

قال تعالى: {فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين}.

وفوق ذلك قرب من الله العزيز الحميد، سبحانه وتعالى.

{ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون}.

هذا أعظم ألوان الحث والترغيب على الجهاد في سبيل الله عز وجل وملازمة الصبر عليه، فلو شعر العباد بما للمقتولين في سبيل الله تعالى من الثواب لم يتخلف عنه أحد.

{ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات..}.

لو كان للإنسان ألف نفس، تذهب نفسًا نفسًا في سبيل الله لم يكن كثيرًا في جانب هذا الأجر العظيم.

وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ما أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا، وله ما على الأرض من شيء إلا الشهيد، يتمنى أن يرجع إلى الدنيا، فيقتل عشر مرات لما يرى من الكرامة".

وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "والذي نفسي بيده لولا أن أشق على المسلمين ما قعدت خلاف سرية تخرج في سبيل الله أبدًا، ولكن لا أجد سعة فأحملهم ولا يجدون سعة فيتبعوني ولا تطيب أنفسهم فيتخلفون بعدي. والذي نفس محمد بيده لوددت أن أغزو في سبيل الله فأقتل ثم أغزو فأقتل ثم أغزو فأقتل".

{ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء}

فمن الذي يسليه ربه تبارك وتعالى بهذا ولا يتسلى، ويصبره ولا يتصبر، وإن عظم الخطب وجل الحدث فإن الأجر والثواب كذلك عظيم جليل.

{ولكن لا تشعرون}

فهذا مما لا سبيل إلى إدراكه بالحس أو بالعقل، لا يدرك إلا بالوحي.

{ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات..}.

لماذا لا يغسل الشهيد؟

- لأن الميت هو الذي يفعل ذلك به والشهيد حي، ولأن الغسل تطهير وقد طهّر الشهيد بالقتل.

ولماذا لا يكفن في ثياب غير ثيابه التي قتل فيها؟

- لأن ما وقع فيها دماء تبقى لونًا فحسب، وأما رائحتها فإنها تكون مثل رائحة المسك، ولأنها حجّته يوم القيامة.

ولماذا لا يصلى عليه؟

لأن الميت هو الذي يفعل ذلك به والشهيد حي، والصلاة شفاعة وقد أغنته عنها الشهادة.

{والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس}

من صبر وقت شدة القتال في الحرب فقد صدق الله في إيمانه وحقق قوله فيه بأفعاله، فبشراه عند ربه سبحانه.

{والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس}

ذكر الصبر على المشاق في طريق الجهاد في سبيل الله عز وجل آخرها ليكون العبد قد استكمل هذه الصفات التي هي الكمال الإنساني - ويجمعها: صحة الاعتقاد، وحسن المعاشرة، وتهذيب النفس -.
وفي ذلك الدلالة القوية على أهمية التربية الإيمانية لهذا المقام العظيم.

{والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس}
فليوطن المجاهد والمرابط نفسه على صبر لا تطير معه النفس شعاعًا في كل نازلة ولا تذهب حسرة مع كل فاجعة ولا تنهار جزعًا أمام الشدة.
بل تتماسك وتصبر وتتصبر وتتجمل وتثبت إلى أن ينقشع هذا كله ويذهب ويرحل ويأتي الله بالفرج واليسر والرخاء من عنده.
ثقة به سبحانه وتعالى، ورجاء فيه، وتوكلًا عليه.

{والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس}
إننا أمة ذات رسالة عظيمة، ودور جليل، ومهمة كبيرة، وغاية رفيعة.
وطريق تحقيق ذلك والقيام به ليس بالسهل الهين بل هو شاق جدًّا.
وهذا كله يستدعي أن تهيئ الأمة أنفسها بالصبر العظيم.
وفي نصب كلمة {والصابرين} على التخصيص أقوى دليل على أن ذلك من أهم الصفات المطلوبة في أهل الإيمان.

{وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم}
يردع المسلم من يعتدي على حرماته ويبذل في سبيل ذلك روحه ويؤيده الله تعالى في ذلك، بل هو الذي يأمره ويدعوه إليه.

{وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا}
ورغم أن المسلم هو المعتدى عليه فهو ينتصف يأمره الله تعالى أن ينتصف فقط، ولا يعتدي، فمثلما لم يبدأ بالعدوان في الشهر الحرام وفي الحرم هو يأخذ حقه ممن اعتدى عليه ولا يزيد على ذلك.

{وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا}
جهاد المسلم جهاد رباني محكوم بغايات وأهداف وآداب فيها أوامر ونواه واجبة الاتباع، ولذلك يأتي الأمر هنا بالقتال ومعه النهي عن الاعتداء للمطالبة بأن يكون هذا القتال ملتزمًا أحكام الشرع مستقيمًا على جادته.

{وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا}

ومن العدوان القتال على غير الدين، والقتال لمن لم يقاتل، والقتل لمن نهينا عن قتله، والقتال على غير هدي الله تعالى وهدي رسوله صلى الله عليه وسلم.

{وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم}

كم احتمل المسلمون قبل نزول هذه الآية وما شابهها من أذى وتعذيب واضطهاد والله تعالى يأمر نبيه صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضوان الله عليهم بالإعراض والصبر والعفو والصفح إلى أن أذن لهم وليس هذا إذنًا بالتشفي بل هو إذن برد الأذى ودفع الاضطهاد مشروط بعدم التعدي فما أرحم هذا الدين وما أعظم تشريعاته مما لو علم به أعداؤه لما ملكوا قلوبهم من محبته والميل إليه.

{وقاتلوا في سبيل الله}

هكذا هو قتال المسلم: في سبيل الله، أي: في طاعته وطلب رضوانه، لإظهار دين الله وإعلاء كلمته، لا لشيء آخر، فما من شيء آخر يكافئ العمل لله ليتركه الإنسان ويذهب إليه.

{وقاتلوا}

كانوا من قبل قد قيل لهم: كفوا، فكفوا، والبوم يقال لهم: قاتلوا، فقاتلوا، وهكذا المؤمن ينتظر أمر الله ورسوله في كل شأن، بخلاف الجاهلي الذي كان يستجيب لأول صرخة من دون تمهل أو انتظار.

وهو تدريب عظيم على تطويع النفس لله وخروجها من أسر هواها وشهواتها ورغباتها وبيئاتها.

وهذا أمر عظيم يسترعي الانتباه ويستدعي التأمل لما عرف من صفات الرجل الجاهلي، من أجل الوقوف على قدر التغيير الذي أحدثه الإسلام في نفوس أولئك الرجال العظماء.

{وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم..}

إذن هذا مثال من أمثلة التدرج، السنة الربانية العظيمة في الخلق والتكوين، وفي التشريع، وفي الدعوة، وفي سائر الأمور.

مطالبة بالكف، ثم إذن في قتال من قاتل، ثم أمر وفرض.. إلخ.

وفق حكم ومقتضيات في الأنفس والأمكنة والأزمنة والأحوال.

{وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا}

وليس معنى ذلك انتظار وقوع الاعتداء من العدو على أهل الإسلام، ذلك لم يقله القرآن.
إنما المقصود: أن نعلم من حالهم ويتبين لنا من وضعهم أنهم يعدون للخروج لحربنا ويمهدون للعدوان علينا، فهذا يكفي في السعي لدحرهم ورد كيدهم في نحورهم وكفاية المسلمين مفاسدهم وشرورهم.

{واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم..}
اقتلوا الذين يقاتلونكم حيث أدركتموهم وظفرتم بهم - في أي مكان لقيتموهم فيه -، من احتل أرضك وعرضك وأباد شعبك وأفسد مقدرات وطنك وفعل بك كل شر وسوء ليس عليك من حرج في كل ما تفعل به.
وسيأتي الوقت - بعون الله تعالى - الذي نقول فيه: {وأخرجوهم من حيث أخرجوكم} ليخرجوا من كل شبر في أرض الإسلام أو يعيشوا فيها تحت حكم الإسلام ولسلطته خاضعين.

{واقتلوهم حيث ثقفتموهم}.
من أصاب منهم مقتلًا وأمكنه فعله، ومن قدر على إخراجهم من أرض الإسلام فعله، لا ينبغي له أن يتأخر.

فإن ما يفعلونه بالمؤمنين أشدّ وأضرّ وأعظم وأكبر، في العاجل والآجل.

{فإن قاتلوكم فاقتلوهم}
في الزمن كله، والمكان كله، والحال كله، والصفة كلها، إن خطاب السلام مع من يقتلك يهينك ويذلك ويفنيك!

{والفتنة أشد من القتل}
أشد وأكبر، فكل ثمن يدفعه المسلم لدحرها قليل هيّن، إن لا إله إلا الله أولى بنفس المؤمن وماله وولده!

{والفتنة أشد من القتل}
أعظم فتنة كانت وتكون هي أن يبقى الكفر عالي الراية في الأرض يفسد دين الناس ويخلب ألبابهم بأدواته.

{فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم}

في لحظة واحدة يسقط عن الكافر كل شيء، ينتقل إلى صف المسلمين فيصير أخًا لهم، ويكون له مثل حقوقهم.
ويغفر له ذنبه الماضي فيدخل في الإسلام كأنما ولدته أمه.

ومع هذا يحتفظ بحسنات أعماله السابقة في الخير جميعها.

{فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم}

نعم الرب ربنا، يطمع الكافر في الإسلام ليغفر له ويرحمه، ويسقط عنه القصاص والدية، رغم كل ما كان منهم!

{فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم}

وتصفو نفس المؤمن تجاههم، فلا حقد ولا ضغينة، وتسلم أبدانهم وأعراضهم وأموالهم من اعتدائه عليها وهم الذين قتلوا وفتنوا وفعلوا به الأفاعيل.

ويحتسب ذلك عند الله تعالى.

أي تربية هذه!

{وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة}

تطهير الأرض من أنجاس الكفر وأرجاسه أمانة في رقاب المسلمين.

{وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله}

هذا يوم سعد وسرور وفرح وحبور، أن يتحرك المرء بدينه كما ينبغي، يستعلن به ويجهر، لا يخشى ولا يداهن ولا يتقي ولا يستخفي، لا يحسب حساب من يفتنه أو يصده أو يؤذيه لأنه متدين!

{وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله}.

تلك والله غاية، ألا يكون للكافر ونحوه قوة على فتنة المسلم عن دينه، فلا يؤذويه لأجل استقامته، ولا يمنعه من إظهار عبادته أو يحجر عليه من أجل الدعوة إليها.

{فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين}.

يا لعدل الإسلام، إن اضمحلت قوتهم وتلاشت سطوتهم وسكنت فتنتهم وانتهت جرائمهم.. فلا داعي لمعاقبتهم أجمع، إنما يعاقب من أساء وتعدى وظلم.

تبارك ربنا الرحمن!

{وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله}.

ومن يوم نزلت هذه الآية في شبه الجزيرة وإلى يوم الناس هذا توجد قوى عديدة ظالمة بوجوه متنوعة ودوافع مختلفة تصد الناس عن الدين وتمنعهم من سماع الدعوة إليه وتفتن المؤمنين به وتحرمهم العيش به في أمان وتمنع أن يكون الدين لله.

كم عانى المؤمنون بالأمس وكم يعانون اليوم في ظل هذه القوى، وكلما غابت قوتهم!

{وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة}

إنها دعوة إلى التضحية بالحياة من أجل الدين، فالدين أغلى من كل غال ولو كانت الحياة.

{وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة}

أعداء المسلم الحقيقيون هم الذين يمنعونه عن الفرح بدينه ويصدونه عن ممارسته ويفتنونه عن الجهر بعمله ويحرمونه من الدعوة إليه.

{وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين}

هذه ثلاثة أهداف للجهاد في سبيل الله عز وجل:

إزالة الفتنة.

والقضاء على الشرك.

والوقوف في وجه العدوان والظلم.

{وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة}

لا يقدِّر كثيرون الفتنة التي كانت تقع في الماضي وتقع في الحاضر ويعد لاستمرارها وزيادتها في المستقبل إذا تفرغ الصهاينة والصليبيون لأمة الإسلام ولم تعد أمامهم جبهة من الجبهات تعوق مشاريعهم.

وهذه الآية الكريمة تحذرنا بعض ذلك - الشرك وما يتبعه من أذى المشركين للمسلمين واضطهادهم وتعذيبهم - إذا لم تكن ثمة مواجهة حقيقية تقف دون أطماعهم وتعرقل خططهم وتضغطهم وتكسر شوكتهم وتدحرهم، فلا يستطيعون أن يفتنوا طائفة من أهل الدين الحق، إلى أن يأتي يوم - بعد جهود وجهاد - يكون فيه الدين الظاهر في الأرض هو الدين الذي شرعه الله تعالى على لسان نبيه محمد صلى الله عليه وسلم.

وكيف تحقق هذا الأمر في السابق؛ كيف تعرقلت مشروعات العدو وظهر دين الإسلام؟
لقد تحقق ذلك في عهد النبي صلى الله عليه وسلم بالقتال الذي دار بين المسلمين وبين المشركين - من وثنيين ويهود - في أكثر من عشرين غزوة قادها النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه وفي أكثر من أربعين سرية بعث فيها أصحابه رضوان الله عليهم.
فكانت ثمار هذا الجهاد أن انتصر الحق وزهق الباطل، وقبل أن يلتحق النبي صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى كان الدين الظاهر في جزيرة العرب هو الدين الإسلامي الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم.
وتحقق ذلك بعده صلى الله عليه وسلم - كذلك - في دولة الخلافة الراشدة وبعدها، فإن أمر الإسلام لم يزل عزيزًا ظاهرًا بالجهاد إلى أن تركته فذلت.
ولن يعود أمرها إلى هذا العز إلا بهذا الطريق يوم تفيء إليه أمة الإسلام.

{واعلموا أن الله مع المتقين}
ومن كان الله معه بالمعونة والنصرة والحفظ والعلم فماذا يخاف!

{وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة}
هذان واجبان أوجبهما الله تعالى على أهل الإسلام في قتال أعدائهم، أحدهما أوسع من الآخر.

الواجب الأول: الإنفاق في سبيل الله تعالى، فإن الله يعوّضكم منها أجرًا ويرزقكم عاجلًا.
والواجب الثاني: القتال، فإنكم إذا قعدتم عنه وأقمتم على الأموال، وإصلاحها، وتركتم الغزو هلكتم.

والواجب الأول منهما - بلا ريب - أوسع من الواجب الثاني، فإن معظم الناس يستطيعون الإنفاق ولا يستطيعون النفقة، وترك واحد منهما من أسباب الهلكة:

* ترك النفقة في سبيل الله، ولو لم يجد المنفق إلا القليل.
قال ابن عباس: إن لم يكن لك إلا سهم أو مشقص أنفقته"، "أنفقوا ما كان من قليل أو كثير، ولا تستسلموا، ولا تنفقوا شيئًا فتهلكوا"، وقال السدي: أنفقْ في سبيل الله ولو عقالًا".

* وترك الجهاد في سبيل الله.
عن أسلم أبي عمران، قال: غزونا من المدينة نريد القسطنطينية وعلى أهل مصر عقبة بن عامر، وعلى الجماعة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، قال: فصففنا صفين لم أر صفين قط أعرض ولا أطول منهما، والروم ملصقون ظهورهم بحائط المدينة.

قال: فحمل رجل منا على العدوّ.
فقال الناس: مَهْ لا إله إلا الله، يلقي بيده إلى التهلكة.
قال أبو أيوب الأنصاري: إنما تتأوّلون هذه الآية هكذا أن حمل رجل يقاتل يلتمس الشهادة أو يُبلي من نفسه، إنما نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار، إنا لما نصر الله نبيه، وأظهر الإسلام، قلنا بيننا - معشر الأنصار خفيّا من رسول الله صلى الله عليه وسلم -: إنا قد كنا تركنا أهلنا وأموالنا أن نقيم فيها ونصلحها حتى نصر الله نبيه، هلم نقيم في أموالنا ونصلحها، فأنزل الله الخبر من السماء: {وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة..} الآية، فالإلقاء بالأيدي إلى التهلكة: أن نقيم في أموالنا ونصلحها، وندع الجهاد.
قال أبو عمران: فلم يزل أبو أيوب يجاهد في سبيل الله حتى دفن بالقسطنطينية.

{الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص}

بعضهم يظن سماحة المسلم سذاجة ويحسب عفوه غفلة ويتصور صبره ضعفًا، وهم مخطئون، وحقيق بالمسلم أن يصون نفسه من ظنون أولئك فيه فإذا جرب أحدهم أن يبني عليها شيئًا من القول أو الفعل أظهر له الوجه الآخر المناسب لعمله.

{الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص}

ومن ذلك أن يعامل المعتدي من الظالمين بمثل الصفة التي اعتدى بها على المظلومين، في الغاية والوسيلة والطريقة والمكان والزمان والحال.
إن الظالم الذي قرر عدم صيانة الحرمات أولى أن لا تصان حرمته، ومن حرم الناس من واحة أمن في مكان أو زمان كان أحرى أن يحرم هو منها.

وليحمد الله أن المسلم يلتزم الشرع الذي ينهاه عن التجاوز في هذا والمغالاة.

{فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم}

فأجدر بدين يأمر بالعدل مع أعدائه أن يكون دين الحق.

{واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين}

يجب أن يعلم المسلم أنه إنما ينصر بتقوى الله تعالى، فعلى قدر استمساكه بها يأتيه النصر وعلى قدر ابتعاده عنها تحيق به الهزيمة، ولما كان هذا مقررًا لدى المسلمين وكلهم الله تعالى إلى ذلك ونبههم عليه.

{واعلموا أن الله مع المتقين}

ومن أحب أن يكون له هذا الذي يبشر الله به عباده فليكن منهم، إن أحب أن يكون الله معه فليكن من المتقين:

- يصدق بخبر الله دون ارتياب.
- ويسرع في طاعته طلبًا للثواب.
- ويجتنب معصيته خشية العقاب.

{وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة}.

إمساك اليد عن النفقة في سبيل الله عز وجل إلقاء باليد إلى الهلاك.

والمطلوب أن ينفق المسلم في سبيل الله نفقة حسنة.

{وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة}

أعظم النفقة هي النفقة في سبيل إعزاز الدين الذي شرعه الله عز وجل لنا.

لا سيما في صد العدو الذي ينصب لنا الحرب لنكفر بالله.

{وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا}

ينبغي أن يحسن المنفق الظن بربه تبارك وتعالى، وفي الحديث: "أنفق بلال، ولا تخش من ذي العرش إقلالًا".

{وأنفقوا في سبيل الله}

وهكذا يتكامل أهل الإسلام: فقير يقدر على الجهاد، وغني لا يقدر، فيكمل هذا هذا ويقوم هذا عن هذا.

وربما ظفر بعض المجاهدين بالأجرين جميعًا، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء.

{وأحسنوا إن الله يحب المحسنين}

ومن أحسن وأحبه الله تعالى لذلك، ينبغي أن يديم الإحسان ليبقى له حب الله على الدوام.

{وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة}.

وخير الإنفاق ما كان وقت ضيق حال، وقلة مال، وإمساك الرجال.. فهنا النفقة أوجب وأعظم أجرًا وأبقى أثرًا.

{وأحسنوا إن الله يحب المحسنين}

ومن لم يجد المال الذي يحسن به إلى الخلق فليحسن إليهم بخلقه، بجاهه، بدعوته، بدعائه، بعبادته.

{وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا}

وأحسنوا غاية الإحسان من أجل أن تكون العدة التي يملكها المسلم مثل عدة عدوه إن لم تكن فوقها.

{واعلموا أن الله مع المتقين . وأنفقوا في سبيل الله}.

تعهد الله للمؤمنين بالتأييد والنصر لا يسقط عنهم أخذ العدة اللازمة لقتال عدوهم وبذل الوسع في الأخذ بالأسباب من أجل النصر وعدم التفريط في شيء من ذلك.

{واعلموا أن الله مع المتقين . وأنفقوا في سبيل الله}.

وإذا كان هذا قول الله تعالى لمن اتقوا فكيف يطمع في النصر من اراتكبوا المعاصي وأنفقوا الأموال في الشهوات وفرطوا في الأخذ بالأسباب وقت الأمن ثم يطلبون النصر وقت الحرب فهؤلاء مغرورون.

فإن نصرهم الله فذلك من أجل استبقاء الدين، وإلا فإنه يسلط عليهم أعداءهم بتفريطهم.

{وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة}

التهلكة حيث يلتفت المسلمون إلى مصالحهم الدنيوية وينهمكون في ترضية شهواتهم الشخصية ويتركون حماهم مستباحًا دون قوة، هنا تكون التهلكة.

{ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله}

باعوا أنفسهم لله، والله اشترى، ما أسعد العبد حين يكون طرفًا في عقد يكون طرفه الآخر رب العالمين!

{ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله}

المشتري: رب العالمين، والبائع: العبد، والسلعة: الجنة، والثمن: بذل النفس لله طلبًا لرضاه.

{ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله}

من ذا يبيع، وهو رابح بكل حال، ويدخل في هذه الآية كل شار نفسه في طاعة الله وجهاد في سبيله أو أمر بمعروف!

{ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله}

وفي ذلك يتنافس المتنافسون: حمل هشام بن عامر على الصفّ - صف الأعداء - حتى خرقه، فقالوا: ألقى بيده.

فقال أبو هريرة رضي الله عنه: {ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله والله رءوف بالعباد}.

{ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله والله رءوف بالعباد}

يرغب سبحانه العباد في هذا رأفة ورحمة منه بهم، وكل صانع يحب النجاح لصنعته.

{ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله والله رءوف بالعباد}

عند الله من الدرجات ما لا يجوز أن يصل إليه العبد في جلالته إلا بتلك المنزلة.

{ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله والله رءوف بالعباد}.

لما قصُر نظر العبد عن رؤية بعض المعالي وكان ربه به رؤوفًا نظر له بنفسه ودله على أحسن ما يمكنه الوصول إليه.

{ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله والله رءوف بالعباد}

لما ابتغوا مرضات ربهم في بيعهم جازاهم بحسن النظر لهم في مآلهم.

{والله رءوف بالعباد}

لرأفته بهم وصلوا إلى هذه الأحوال.

{ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله}

يا لها من صفقة عظمت فعظم ثوابها، كلفوا الجهاد ومنحوا ثواب الشهداء.

{ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله}

وهل ثم أغلى ممن يبذل دنياه ونفسه وماله من أجل أن يعز الدين!

{ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله}

تارة يسميه بائعًا {إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم}.

وتارة - كما هنا على قول - يسميه مشتريًا: {ومن الناس من يشري نفسه..}.

وتارة يسمي هذه الصفقة تجارة: {يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم}.

{ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله والله رءوف بالعباد}.
ومن رأفته أن بذل للعبد الجزيل في مقابل القليل والدائم في مقابل المنقطع والأصل في مقابل الصورة.

{والله رؤوف بالعباد}
فلا تسأل عن الأجر الذي حصلوه، والنعيم الذي نالوه، حسبك أن تعلم أن ذلك من عند الرءوف جل ثناؤه.

{ومن الناس من يشري نفسه}
باعها كلها لله، لم يستبق منها شيئًا، وجعل الصفقة كلها لله لم يستثن منها شيئًا.

{ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله}
إنما يُطلب رضا الله تعالى بتصديق ما أخبر به من الأمور، وفعل ما أمر من الخير، وترك ما نهى عنه من الشر.

{والله رءوف بالعباد}
يرأف بعباده كلهم، على حسب أعمالهم، فهؤلاء الذين باعوا نفوسهم كلها خالصة له قد حصلوا أعلى الدرجات نعم، لكن لم يمنع ذلك من أن ينال غيرهم رأفة الله ورحمته التي وسعت كل العباد.

{ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله والله رءوف بالعباد}
ومن هؤلاء الناس: صهيب، فتأمل ما فعله به القرشيون عندما كان عبدًا لهم، ومن قبلهم الروم وكان عبدًا لهم.
وقارن ذلك بفعل الله سبحانه وتعالى به وهو اليوم عبد له.

{ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله}.
وهؤلاء هم الذين يحفظ الله تعالى بهم الأرض، ويقف بهم سعي الذين يفسدون في الأرض ويهلكون الحرث والنسل.
فبهم يصلح شأن الدين، وتضيء الدنيا، ويصفو وجه الحق، وتثمر شجرة الإسلام، وتكون لحياة الإنسان قيمة.

{ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات}

إنهم بعض مصطفى ومنتقى من جملة المؤمنين وليسوا جميعًا، انتدبوا لهذه المهمة الجليلة من أجل إنقاذ أنفسهم والمؤمنين والعالم.

{ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله والله رءوف بالعباد}

وهل هؤلاء أعلى درجة من أولئك الذين ذكرهم الله تعالى في سورة التوبة: {إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة}.

فهنا المدعوون: البعض، وهناك: الكل، وهنا الجزاء: مرضات الله، وهناك: الجنة.

أم أن البعض هنا من الناس: هم المؤمنون، والجزاء هنا رضوان الله، وهو: الجنة!

{ومن الناس}

هؤلاء يضربون من أنفسهم نموذجًا للباقين، ويضحون من أجل المجموع، ليسعدوا ويسعد جيلهم وأبناؤهم ومن قبل هذا دينهم.

{والله رءوف بالعباد}

يوجِد هذه الفئة المؤمنة الصادقة من أجل أن يستبقي الإيمان والحق والعدل والخير، ويدفع بهم الكفر والباطل والظلم والشر، ويحتذي الناس حذوهم.

{ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله}

يسعى إلى ذلك سعيًا شديدًا، ويطلب ذلك طلبًا أكيدًا، ويرغب في ذلك رغبة قوية، تعبر عن ذلك كلمة {ابتغاء}.

فهو صدق ومحبة.

{ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله}

وهؤلاء الكرام حجة الله تعالى على خلقه، القاعدين والمتكاسلين والمفرطين والمهملين، بأن في إمكانهم السعي والجد والبذل.

فهم بشر مثلهم يطلبون ما يطلبون ويفرون مما يفرون.

{ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله والله رءوف بالعباد}

ومن رأفته تعالى أن يمكن لأولئك الشراة آخرًا ويجعل العاقبة لهم.
ومن رأفته تعالى أن يحضهم على الرأفة بعباده كما هو رءوف بهم.

{أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله إلا إن نصر الله قريب}

اثبتوا أيها المجاهدون واصبروا، ولكم فيمن سبقكم من صالحي الأمم مع أنبيائهم ومن صالحي هذه الأمة مع نبيكم صلى الله عليه وسلم في أحد والخندق وغيرهما، ومن جاء بعده من المجاهدين من أمة الإسلام في عصوره المختلفة أسوة.

لقد أصابهم الجهد والشدة والحر والبرد وسوء العيش وأنواع الشدائد وجاءهم عدوهم من كل مكان حتى زاغت أبصارهم وبلغت قلوبهم إلى حناجرهم مصائب متتالية من بعد المصائب في الأنفس والدور والأموال والمعايش.

إن إيثاركم رضا الله تعالى ورضا رسوله صلى الله عليه وسلم يعدل ذلك كله ويفوقه فلتطب به نفوسكم ولتطمئن قلوبكم: آمنتم إذ كفر الناس، وثبتم إذا نافق الناس، ووفيتم إذ غدر الناس، فتذرعوا بالصبر واثبتوا تأسيًا بمن سبقكم من المتقين حتى تفوزوا برضوان الله تعالى ونصره.
وإن لكم من وراء هذا اليوم يوم نصر تأمنون فيه ويخاف غيركم وتطمئنون فيه ويزعجون وتسكنون فيه ويضطربون.
ولكم من ورائه يوم آخر أعظم تظفرون فيه بدخول الجنة ومنازلها العالية ودرجاتها الرفيعة السامقة.
وهذا وهذا يستلزم منكم - أيها الكرام - التأسي بهؤلاء السابقين الصادقين من المتقين في الصبر والثبات.

{أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا..}
نصر في الدنيا وجنة في الآخرة من دون ابتلاء وتمحيص؟
ففيم ابتلي الأولون من الرسل وأتباعهم بالمحن والشدائد والاختبار!
تلك السنن ليس فيها استثناء.

{مستهم البأساء والضراء وزلزلوا}
مصائب من العدو ومصائب من غيره، حاجة وأمراض وخوف ورعب، تنوعت الابتلاءات والغاية واحدة: التمحيص.

فمن ذا يصبر ليصير جديرًا بالنصر في الدنيا وبالجنة في الآخرة ويفوز الفوز العظيم.

{أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم}
فليوطن كل داعية وأصحابه الذين معه أنفسهم على ذلك، فهي سنة الله التي لا تتبدل ولا تتغير ولا تحابي أحدًا من الخلق.

{أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم}.
وعندما يذكر الله تعالى ذلك لنا فتلك رحمة منه وفضل فليس من علم بما يحتمل أن يصيبه ووطن نفسه على ذلك واستعد له كمن لم يكن كذلك.

{أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم}
تلك الطريق طريق مأنوسة، روادها كثر، مزدحمة مضيئة بالبدور والنجوم ومن يسير على هداهم.
فمن أي شيء يستوحش السالك!

{مستهم البأساء والضراء وزلزلوا}
إنها ليس قرصة خفيفة أو وطأة عابرة أو عثرة ماضية، إنما ابتلاء بالفقر والحاجة شديد، وامتحان بالمصائب والشدائد كبير، وخوف ورعب من الأعداء قوي.

ذلك الإزعاج والإفزاع بالشدائد والأهوال يبلغ بالأمل المنتهى ويصل بالصبر إلى آخره، وذلك مع النبيين ومن معهم من المؤمنين، فكيف يطمع أحد يمضي على طريقهم في أن يخفف الله عنه ما حاق بهم.
لكن إن حصل فهو خير، وإلا فليجهز لذلك عدته ولا يحبطن.

{حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله}
لقد ضجوا فقد نفد الصبر، وضجروا فقد تأخر النصر، واستطالوا زمان الشدة، واستبطأوا وقوعه.
ما للأمر قد بلغ الشدة التي ليس فوقها شدة؟! وما للحال قد تمادى العظم الذي ليس بعدها تمادٍ؟!

هؤلاء الرسل وأصحابهم الذين لا يقادر قدر ثباتهم واصطبارهم وضبطهم لأنفسهم، فمن سواهم معذورون.

{أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم}

هذا طريق الحق، وهذا طريق النصر والظفر، هذا طريق الخير، وهذا طريق الفوز والفلاح، هذا طريق استحقاق الفضائل والفوز بالمنازل: تحمل المحن، والصبر على البلوى.

{أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم}

لستم وحدكم في هذا فكل من سبقوكم كانوا كذلك، وكل من يلحقكم سيكون على ذلك، وهذا تطييب للقلوب، فإن المصيبة إذا عمت طابت، ومن شعر الخنساء:

ولولا كثرة الباكين حولي

على إخوانهم لقتلت نفسي

{أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم}

وأولئك الذين من قبلنا على ما أصابهم من الضر الذي وصفنا لم يتخلو عن الدين ولم يتركوا الحق ولم يفارقوا الطريق، وهكذا ينبغي أن يكون الذين من بعدهم.

{ألا إن نصر الله قريب}

إنه آت، وكل آت قريب، وسيكون إتيانه في وقته الذي قدر الله أن يكون فيه بعلمه وحكمته.

إن الله لا يعجل بعجلة أحد.

{أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم}

فمن طلب الراحة في ذرى الجنة بلا مشقة، وأراد السعادة بلا اجتهاد في العبادة فليعلم أن ذلك محال ومحض ضلال!

{حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله}.

وهكذا يأتي فرج الله تعالى بعد انقطاع أسبابه ممن سواه عز وجل، ليمتحن الله القلوب للتقوى فتتطهر السرائر من الركون لشيء من الخلق، وتعلق الضمائر بالله تعالى وحده.

{أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم}

فالدخول في الإسلام والدخول في الابتلاء طريق العز والنصر والتمكين.

الأول: انقياد وتسليم، والثاني: صبر ورضى.

{أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم}
يلوم الله تعالى المسلمين على ذلك الحسبان، فإن ما حصل لهم من الشدة والألم دون ما حصل لمن سبقوهم على طريق الإيمان.

وهذا من فضل الله فإن البشر تقل استعداداتهم، ومن ثم تقسو قلوبهم ويزداد عنادهم وتضعف قواهم على التحمل.

{أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم}
وفي هذا دليل على ان الايمان قول وعمل، وأنه ليس بالتمني ولا بالتحلي ولكنه ما وقر في القلب وصدقه العمل.

{أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم..}
وقد ذكرت الآية أن المؤمن سوف يبتلى من أجل أن يظهر صدقه من كذبه، وهذا يقع لكل مؤمن.

لكنها لما وعدت بحصول النصر لم تذكر لنا أنه سوف يقع لكل مؤمن كذلك.

وهذا هو الواقع: بعض المؤمنين يبتلى ويصدق ومع هذا لا يرى النصر.
ومن آثار هذا أن يكون في يقين المؤمن أنه إنما يعمل لأن الله تعالى أمره أن يعمل، ويثبت لأن الله تعالى أمره أن يثبت، وليس من أجل النصر، فإن جاء النصر فحيهلا، وإن لم يأت فقد أدى هو ما عليه.

{أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم..}
قد يتوهم المسلم أن الله تعالى يدافع له عن عقيدته ومقدساته وهو نائم أو قاعد يلهو أو يتأمل.

وبعضهم يردد في هذا الصدد: للبيت رب يحميه، مقولة عبد المطلب التي قالها بحق جيش أبرهة من قبل أن بظهر الإسلام ويوجد المسلمون!

وهذه الآية تعلمنا أن المسلمين يجب أن يدافعوا عن عقيدتهم، وأن يلقوا في سبيل حمايتها وبلوغ غايتها العنت والمشقة والشدة والألم والضر والرعب والفزع، فإنهم بهذا وحده يصلون إلى تحقيق هذا الهدف: أن يحمي الله المقدسات ويحفظ المعتقدات.

{أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم..}

متى بشروا بقرب نصر الله أولئك الحاسبين، هل عندما آمنوا، هل عندما حسبوا وظنوا، هل عندما ابتلوا وامتحنوا؟

لا، إنما بشروا بقرب النصر عندما ثبتوا وصدقوا.

فإن الله تعالى يأتمن على دينه من كان أهلًا لهذه الأمانة، ولن يكون المرء أهلًا لذلك إلا إذا مر بكل ذلك.

{أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم..}

إن الجنة لا تدخلها إلا نفس مؤمنة طيبة نقية، وهذا هو الطريق، فيه الإيمان والثبات والتحرر من الخوف والذل والدعة والحرص على الحياة.

هذا العلو على عالم الطين هو السبيل إلى الالتحاق بعالم الجنة.

{وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله}

وهؤلاء المكروبون في هذه المحنة المزلزلة، التي تفوق الوصف، لا يسائلون عن أي نصر من أي جهة، إنما يسألون فقط عن نصر الله.

{كتب عليكم القتال وهو كره لكم}

القتال فرض لا ينبغي لأئمة المسلمين وعامتهم وأفرادهم تركه حتى يقوم به مَن في قيامه الكفاية.

فإذا قام به من فيه الكفاية يسقط فرض ذلك حينئذٍ عن باقي المسلمين.

{كتب عليكم القتال وهو كره لكم}

والقتال مشقة تكرهها النفوس، وليست كل مشقة تجلب التيسير.

{كتب عليكم القتال وهو كره لكم}

والكره هو ما حمل الرجل نفسه عليه من غير إكراه أحد إياه عليه.

يحمل المسلم نفسه عليه استجابة لأمر الله وطلبًا لمرضاة الله.

{وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم}.

تكره النفس القتال وهو خير لها، فيه الأجر والنصر والفتح والعز والشهادة وسعة العيش.
وتحب النفس ترك الجهاد وهو شر لها، فيه الذلة وفوات الأجر وفوات فضل الشهادة واجتراء العدو والأسر والقتل.

{والله يعلم وأنتم لا تعلمون}
علم الله وإرادته للمسلم خير من علم المسلم وإرادته لنفسه، في العاجل والمعاد.
فارغب في الجهاد أيها المسلم ولا ترغب عنه.

{وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم}
هذه كراهة الطباع والنفس من نفور كل طبع عن احتمال الشدائد والمشقة وكراهيته، وليس في ذلك تكليف.
إنما الكراهة التي فيها التكليف هي كراهة الاختيار.

وهذه قاعدة مهمة.

{وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئًا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون}
العواقب والخواتيم بيد الله عز وجل، وإنما نحن نعمل في التصديق وامتثال الأمر والنهي.

يا أيها الإنسان، ليس إليك من التدبير شيء، فاسع فيما أمرك الذي يدبر كل شيء.

{وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئًا وهو شر لكم}.
هناك راحة معجلة وراحة مؤجلة، فالراحة المعجلة راحة القلوب والراحة المؤجلة راحة الأبدان.

والسبب في تعجيل الأولى لأنها قريبة من الله والسبب في تأجيل الثانية أنها تدرب على التخلص من أسر عالم الطين لتكون قريبة من الله.

فمن آثر راحة الأبدان على راحة القلوب هنا تعب، ومن آثر راحة القلوب على راحة الأبدان استراح.

{وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم}
يكره أحدنا الدواء لمرارته وهو لمنفعته، ويكره مشرط الطبيب وهو لسلامته، ويكره السفر ومشاقه وهو لربحه، ويكره السهر والتعب في تحصيل العلم وهو لعلوه وعزه.

وهكذا ربما كان الشيء شاقًّا علينا في الحال، وهو سبب للمنافع الجليلة في المستقبل وبالضد.

{وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم}
تصور النفس لصاحبها أن في القتال ذهابه وهو في الحقيقة البقاء، وتصور له أن في ترك القتال الراحة والسكون وهو في الحقيقة الهلاك.

{وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئًا وهو شر لكم}.
الأمران متى تعارضا فالأكثر منفعة منهما هو الراجح.

{وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئًا وهو شر لكم}.
في مخالفة الهوى السلامة، وفي متابعته الندامة، وفي مخالفة الشرع الندامة وفي متابعته السلامة، وحيث التقى الشرع والهوى على شيء فتلك الغنيمة الباردة.

{والله يعلم وأنتم لا تعلمون}
فمهما تكن عواقب ما أمر الله ورسوله به أو نهى عنه يسلم المسلم ويصبر بما تجري به المقادير.
وحسبه أنه عبد يمتثل والله يعلم ما لا نعلم.

{وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئًا وهو شر لكم}
وما دام الأمر كذلك فينبغي أن لا يقترح العبد على الله ولا يختار عليه وإنما يسأله أن يختار له وأن يرضيه بما اختار له، وفي دعاء الاستخارة المشهور بيان ذلك.

{وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئًا وهو شر لكم}
والإسلام لا يصادم الفطرة والطباع إننا يهذبها ويربيها ويؤدبها، يربيها على الطاعة ويفسح لها في الرجاء، لتسعى هي بنفسها إلى ما فيه خيرها فتنال ما ترجوه على أحسن الوجوه، بعيدًا عن الأوهام.

{وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئًا وهو شر لكم}
بيّن تبارك وتعالى الحكمة من باب التخفيف من مشقة التكليف.

{وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئًا وهو شر لكم}

الشرع يعتمد في التكاليف التي يأمر بها مبدأ جلب المصالح وزيادتها ودفع المفاسد وتقليلها، بحسب الغايات والعواقب، وليس ملاءمة الطبع ومنافرته.

{والله يعلم وأنتم لا تعلمون}

ما من أمر من أمور الشريعة إلا وفيه الخير، علمه من علمه وجهله من جهله، وما لم تتبين لنا حكمته نوقن بأن فيه حكمة مناسبة لحكم الشرع فيه، ونسعى في الكشف عنها، فإن علمناها وإلا وثقنا أنها كذلك لأنها من حكيم عليم.

{كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم...}

ربما قال بعض الناس إن في القتال عدوان، وربما قالوا إن في السلم رحمة، لكن كم من عدوان يحوي في نفسه أعظم المنافع ومن الرحمة ما يضم أشد أنواع الظلم ومن الرفق ما يشجع أقصى العنف.

{والله يعلم وأنتم لا تعلمون}

يجب أن يتريث المرء في الحكم على القضايا التي لا يحيط علمه بها.

وإنما الواجب في هذه الحالة أن يكل العلم إلى عالمه، وهذا درس فصلته سورة البقرة في قصة الملائكة مع آدم وسورة الكهف في قصة موسى مع الخضر، وغيرهما.

{وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئًا وهو شر لكم}.

عوّد نفسك على أن تنطلق في حساباتك في الأشياء كلها على أساس النظرة الشرعية والموازين الربانية، وليس على أساس شيء آخر.

{والله يعلم وأنتم لا تعلمون}

فكيف يسوغ بعد هذا للإنسان أن يضع خطة لشأن من شؤون دينه وأمته ودنياه الخاصة أو العامة خالية عن الله جل جلاله الذي يقول للشيء كن فيكون

{يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير}.

القتال الذي يكون الغرض به نصرة الإسلام وإذلال الكفر ليس من الكبائر.

إنما ذلك هو القتال الذي يكون الغرض فيه هدم الإسلام وتقوية الكفر.

{يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير..}.

من الضروري الجواب عن شبهات المشككين من الكفار والمنافقين لئلا يرجف هذا أو يخذل الصالحين الساعين لتطهير الأرض من المفسدين، ليمضوا على أرض صلبة بقلوب مطمئنة في يقين وثقة.

{وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل}.

لم يرض أن يتخذوا الحرمات متاريس، يأتون كل منكر ثم يقولون: الشهر الحرام والمسجد الحرام.

فهل يتعلم المسلمون، عدوهم يضربهم على أم رؤوسهم اليوم وهم يصيحون: السلام السلام، إن الإسلام يأمرنا بالسلام!

{والفتنة أكبر من القتل}

القتل الحاصل من وراء وجود الشرك وعلوه وظهوره أكثر وأعظم من القتل الذي يزول به الشرك أو يضعف جانبه.

{ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردونكم عن دينكم}.

وما زلنا نرى ذلك إلى يومنا هذا، فصلى الله وسلم وبارك على النبي الرسول الصادق الذي لا ينطق عن الهوى.

{ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردونكم عن دينكم إن استطاعوا}

ولم يستطيعوا في وقت مضى ولن يستطيعوا في وقت يأتي.

ومثلما لم ييأسوا من المحاولة ينبغي أن لا يرتاب المؤمنون في عدم قدرتهم على ذلك.

بل يجب أن يكون أمن المؤمنين من ذلك بلا سقف.

{ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردونكم عن دينكم إن استطاعوا}

ها هم أهل الباطل يسعون إلى هذه الغاية البعيدة ويجعلونها الهدف الثابت المستقر لعملهم الخبيث وسعيهم المجرم، وبعض المنتسبين إلى الإسلام نسمعه يقول: هل لا يمكن أن يَقتل ١.٦ مليار (مسلم) الدنيا كلَّها التي يعيش فيها سبعة مليارات حتى يتمكنوا هم من العيش!

{ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردونكم عن دينكم إن استطاعوا}

يكرهون وجود الإسلام ويرعبهم ويغيظهم ويخيفهم أن يتمسك بهم المسلمون، الإسلام الحق القوي المتين، يفزع كل باغ مبطل مفسد، لهذا يسعون إلى القضاء على الإسلام والمسلمين بكل وسيلة.

{إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله}.

هذه الثلاثة - الإيمان والهجرة والجهاد - عنوان السعادة، وأبواب الربح، وسبيل الفلاح، ومن قام بها فهو بما عداها أعظم وأكمل قيامًا.

{أولئك يرجون رحمت الله}

بمثل هذا يكون رجاء الرحمة، لا بمجرد الأماني والدعاوى، فذلك خور ونقص عقل وعجز وغرور.

ومثله كمثل من يرجو الولد من غير زواج.

{أولئك يرجون رحمت الله}

فإذا كان هؤلاء مع ما معهم من هذه الأعمال العظيمة الكبيرة يرجون ولا يحققون.. فعلى أي عمل بعدها يمكن أن يعول العبد ويعتمد!

{فإن خفتم فرجالًا أو ركبانًا}

خفف عنهم في شدة الحرب أن يصلوا على أرجلهم أو على مراكبهم، متوجهين ناحية القبلة أو غير متوجهين إليها.

ولم يسقطها عنهم رغم ما هم فيه، فالحسرة على من ضيعها وهو في أقل مما هم فيه.

{فإن خفتم فرجالًا أو ركبانًا}

وفي هذا دليل على أن المؤمنين ينصرهم الله على عدوهم بطاعتهم، فلا ينبغي لهم أن يدعو طاعة الله في كل وقت.

{فإن خفتم فرجالًا أو ركبانًا}

فالصلاة سلاح يقاتل بها المسلم في الحرب مثل السلاح الذي يكون في يده.

وهي درع يحميه مثل الساتر الذي يقيه رصاص العدو وغيره.

{وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم}.

المؤمن يستجيب لأمر الله تعالى فمن حيي فالله تعالى أحياه، ومن قتل فبقضاء الله تعالى كان قتله.

{وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم}
يسمع الله نجواك وشكواك ويعلم فعالك وأحوالك، فلا تحسبن شيئًا من هذا يغيب عنه أو يفوت جزاؤه لديه.

{وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم}.
يا من لا تخفى عليه أنات المتألمين، وصرخات المفجوعين.

رحماك بهم ربي!

{وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم}.
يعلم الله تعللك هذا، صدق هو أم كذب، فقل ما تشاء، وهو بما تقول أعلم وأضمر ما تشاء فهو بما تضمر أخبر.

{وقاتلوا في سبيل الله..}
من هرب وفر من الموت - وهو مكتوب عليه - أدركه الموت.
ومن أقبل على الموت - وهو مقدر عليه - أدركه الموت.
فخير للمؤمن أن يموت وهو مقبل على تنفيذ أمر الله من أن يموت وهو فارٌّ من تنفيذه.

{وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم}.
الله تعالى أعلم بمن يرغّب في سبيله وبمن يرغّب عن سبيله، وسيجزي كلًّا بما قال، أو فعل، أو أضمر.

{وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم}.
الله تبارك تعالى أعلم بمن يقاتل في سبيله ومن يقاتل في سبيل الدنيا والنفس وغيرهما وسيجازي كل واحد على حسب بواعثه وعلى وفق أغراضه.

{وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم}.
سبحان من ثبت قلوب أوليائه على الثبات في موطن يقبل فيه على الموت بكل سبيل، بينما يفر غيره يفر من الموت بكل سبيل.

{وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم}

أولى ما يحرص عليه المقاتل: نيته؛ يمحصها، ويكثرها، ويجددها، ويصونها.

{وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم}.

لن يفيدك القعود شيئًا أيها القاعد، ولو ظننت أن في القعود حياتك وبقاءك.

ها هم أولاء الألوف خرجت تفر حذر الموت فأخذها الموت ولم ينفعها الفرار.

ومع هذا فرق بين موت وموت.

{وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم}

سبحان ربي، كم من مقاتل بين الصفين نجا، وكم من قاعد عن القتال هلك، تبارك واهب الحياة وآخذ الحياة.

{وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم}

من العاقل الذي يخير بين موت احتمالي فيه الفخار وموت مؤكد وفيه العار، فيختار الموت الذي فيه العار؟!

لا ريب يختار القتال في سبيل الله تعالى.

{وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم}.

الإعداد للقتال من القتال، ولا شيء يمنع القتال مثل الإعداد له، وقديمًا قالوا: لو كان للحمل ناب ما عدت عليه الذئاب، ولو كان للظبي ظفر وناب ما افترسته أوابد الوحوش.

{وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم}

يشمل هذا..

- قتال المسلم إذا وقع عليه ظلم.
- وقتاله إذا وقع الظلم على غيره.

ومن محاسن الإسلام أنه جعل هذا القتال كله في سبيل الله.

{وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم}

من واجه الموت عز، ومن فر من الموت ذل، والأمة التي تقبل على خط الجهاد لتموت تعود إلى الحياة حرة كريمة مالكة عزيزة.

{وقاتلوا في سبيل الله} {من ذا الذي يقرض الله}.

الحياة لا تذهب بالقتال، والمال لا يذهب بالصدقة، بل تبقى الحياة أعظم مما كانت ويبقى المال أكثر مما كان.

{وقاتلوا في سبيل الله} {من ذا الذي يقرض الله}.

رد الاعتداء ونشر الحق يقتضي البذل: بذل النفوس، وبذل الأموال.

وتلك هي ضريبة العزة، وثمن امتلاك الموقع المتقدم، وقيمة كسب الريادة في الناس.

{من ذا الذي يقرض الله قرضًا حسنًا فيضاعفه له أضعافا كثيرة والله يقبض ويبصط وإليه ترجعون}.

هذا لون عظيم من ألوان الجهاد في سبيل الله، وهو: الجهاد بالمال.

يعين الضعيف.

ويغني الفقير.

ويساعد من قصرت به النفقة.

ويغني من غاب كافلهم.

{من ذا الذي يقرض الله قرضًا حسنًا فيضاعفه له أضعافا كثيرة}

دلالات هذه الصدقة عظيمة.

ومنها أن هذا المتصدق إنما يعطي ثقة بوعد الله تعالى، ويقينًا في يوم آخر سوف يوفيه فيه الله حقه، ألا ما أعظم هذه الثقة وما أقوى هذا اليقين!

{من ذا الذي يقرض الله قرضًا حسنًا..}

ينادي أحبابه، وهل يستقرض إلا من الأحبة، فمن أجاب النداء كان منهم.

{من ذا الذي يقرض الله قرضًا حسنًا}

اصطرع الرجلان ورب الكعبة:

- الغني المقرض يقول: ناداني حبيبي، علم أني أحبه، وما ناداني إلا لأنه يحبني.

- والفقير المقترض لأجله يقول: لو كانت لك بذلك رتبة فإن رتبتي أعلى وأعظم لأنه تعالى سأَل لأَجْلي القَرضَ.

{من ذا الذي يقرض الله قرضًا حسنًا فيضاعفه له أضعافا كثيرة..}.

هيا هيا، فالمستقرض مليء وفي محسن، يأخذ القرض فينميه ويزكيه ويثمره، ويعطي بعض قضاء القرض أجرًا وفيرً وثوابًا جزيلًا وعطاء كريمًا.

{والله يقبض ويبصط}

فالباعث على الصدقة هو القلب، إن أمر اليد أخرجت وإن أمرها أمسكت.

والقلب بيد الله تعالى، فمن رضي عنه بسط قلبه ومن سخط عليه قبض قلبه.

{والله يقبض ويبصط}

لا تخش الفقر إذا أنفقت، فإن تدبير الأمور كلها إلى الله تعالى والتصرف بيده ومدار الأمور راجع إليه.

{ألم تر إلى الملأ من بني إسرائيل إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكًا نقاتل في سبيل الله}

تلك الخطوات الأولى لها ثقلها عند الله في الميزان، وهي بداية طريق النصر.

ربما لا يلحظها المنتصرون في النهاية لكنها مسجلة عند الله في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى.

{قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا}

كم من دعوة صعدت ترجو الجهاد وتطلبه، كم من صيحة خرجت تعلن حب الجهاد وتستعجله فلما حضر كذبتهم أفعالهم، وكان كلامهم حجة عليهم لا لهم!

{هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا}

من يرغب بالعزة يظهر ذلك في حاله وأقواله وأفعاله، فمن كان لديه نقص عالجه أو مفقود أوجده، أو حال سيئ غيره.

{قالوا وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا}

التقاعس عن القتال قبيح.

وهو بعد التهيؤ له أشد قبحًا.

وهو بعد معرفة فائدته أشد وأشد.

وهو ممن ألح في طلبه أشد وأشد وأشد.

{ابعث لنا ملكًا نقاتل في سبيل الله}

يحتاج الجهاد إلى شيئين:

إيمان، وهؤلاء كانوا أهل إيمان.

وتربية، وهذا ما كان ينقصهم.

فمن شاء العزة والنصر والتمكين فهذه عدة العزة والنصر والتمكين.

{فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلًا منهم}

فليحذر من يتمنى ثم يتجاهل أمنيته إذا تحققت ولا يؤدي حقها، ومن يدعي ثم يفشل في إقامة البرهان على دعواه، ومن يسأل فإذا أجيب إلى سؤاله أعرض كأن لم يحصل منه شيء.

ويل للناكثين عهودهم، الناقضين عزائمهم، المتقلبين بحسب المصالح والمنافع الزائلة.

بين القوم الذين قال الله عنهم: {ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت..}.

والقوم الذين قال الله عنهم: {ألم تر إلى الملأ من بني إسرائيل إذ قالوا لنبي لهم ابعث ملكًا نقاتل في سبيل الله}.

بينهما موقف وسط، وهو الصواب الذي انتهجته أمة الإسلام: لم تفر من القتال ولم تطلبه.

وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فاذا لقيتموهم فاصبروا".

إننا ندافع عن منعنا من إقامة ديننا، ولسنا كهؤلاء وهؤلاء، وبهذا جاءتنا الآيات على طريقة "إياك أعني واسمعي يا جارة".

{ابعث لنا ملكًا نقاتل في سبيل الله}

لا بد للناس من رأس يجتمعون عليه ويصدرون عن أمره، خاصة في تدبير أمور الحرب.

وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم".

فكيف بما هو أعظم!

{والله عليم بالظالمين}

فهذا وعيده لمن ظلم بالقعود عن القتال وترك الجهاد.

{قالوا وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا}.

لو قالوا: وقد أمرنا بالقتال فوجب علينا امتثال أمر ربنا.. لعلهم وفقوا لإتمام ما قصدوه.

{إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكًا نقاتل في سبيل الله}.

واستمرت المحاورة بين: في مشورة ومداولة وسؤال وجواب.. وهذا جو طيب من فسحة الرأي مطلوب، وبه - إذا صدقت العزائم - تنهض الأمم.

{قالوا وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا}

الجهاد في سبيل الله هو الطريق الوحيد لحفظ الدين والأوطان والأنفس والأموال ونيل العزة والكرامة والحرية.

{قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا}.

القتال شديد، مليء بالابتلاءات والتضحيات في الأنفس والأموال.

لهذا وجب أن يكون قرار الحرب عن دراسة عميقة من كافة الوجوه.

{وزاده بسطة في العلم والجسم}

يحتاج الملك إلى:

- فضل علم - علم الحرب والقتال، وعلم حفظ الرعية وغيره -.
- وفضل قوة تمنحه هيبة، مع فضائل نفس وخصائل روح محمودة.

فالإمامة ليست وراثة، لا حظَ للنسب مع العلم وفضائل النفس.

{وزاده بسطة في العلم والجسم}.

الفضائل النفسانية أعلى وأشرف وأكمل من الفضائل الجسمانية، وفي كل خير، وإذا اجتمعا دلا على كمال صاحبهما.

{وزاده بسطة في العلم والجسم}.

سعة المال تذهب، وبسطة العلم والجسم تبقى وتثبت.

{وزاده بسطة في العلم والجسم}.

بالعلم تحصل المكنة في التدبير والنفاذ في كل أمر، وبالجسم يتمكن من الظفر بخصمه والغلبة لعدوه.

{فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر}.

تشير الآية الكريمة إلى أن أقوى عوامل النصر في الميدان:

- الامتثال لتعليمات القيادة الحكيمة.

- والصبر والاحتمال.

{فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر}

ينبغي الحذر من المتحمس والمندفع، وإقامة الاختبار بعد الاختبار لمعرفة صدقه وجديته ومدى الاعتماد عليه.

{فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر}

وفي الوقت الذي كان طالوت يختبر جنوده بهذا الاختبار كان اختباره هو معقودًا في نفس التوقيت:

هل يستطيع أن يرتب أمر هؤلاء القوم على اختلاف أنواعهم وهل يقدر على تربيتهم واجتياز النصر بهم!

فهو اختبار للجند والقائد معًا.

{فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده}.

هؤلاء مؤمنون، واعتراهم ضعف بعد قوة، ولا عجب، الإيمان يزيد وينقص.

فلا تيأس من نفسك واجتهد في تجديد إيمانك.

{فلما كتب عليهم القتال تولوا}

{فشربوا منه}

{فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده}.

العزم على القتال شيء والقتال الحقيقي شيء آخر، كم من عازم أبدى استعداده وتأهب قبل القتال.

فلما حضر القتال انحل عزمه ونكص، وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يدعو {أسألك الثبات في الأمر والعزيمة على الرشد}.

{فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر}

عندما تكون القيادة بيد من هو أهلها يعرف ما الذي يجب عليه أن يعمله ومتى وأين وكيف، وتنتج له هذه الأمور - بالطبيعة - ضرورة النتيجة التالية:

{فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر}.

القائد الذكي يتفقد جنده؛ يجنبهم المتقاعس والمخذل ويدفع عنهم ما يضرهم، ويجلب لهم ما يعينهم ويسرهم.

{ومن لم يطعمه فإنه مني}

من أعظم ركائز النصر: الإرادة الصامدة المستعلية على الدنايا الصابرة على المشاق، وأمة تمتع بهذا أمة غالبة، لا ريب.

{فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه}

لم يلتفت القرآن إلى الذين قال عنهم {فشربوا منه إلا قليلًا منهم}.

ولم يلتفت إليهم القائد والمؤمنون معه، بل مضوا إلى غايتهم.

{قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين}.

المسلم أخو المسلم، يشد أزره وقت ضعف إيمانه ويسنده وقت قلة يقينه، ينتشله ولا يخذله ولا يسلمه للشيطان.

{كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين}.

النصر والهزيمة ليسا بالقلة والكثرة بل بالإيمان والإعداد الجيد والأخذ بجميع عوامل النصر وأسبابه.

بين هذه الفئة التي قالت: {لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده} والفئة التي قالت: {كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله} فرق في النظرة وليس في الواقع.

الواقع هو هو، عددهم وعدد عدوهم والظرف والعدة، لم يتغير شيء من هذا كله.

لكن الفئة الأولى نظرت إلى الحال ببشريتهم فأصابهم الرعب، والفئة الثانية نظرت إليه بهيمنة الله تعالى عليه وعلى كل شيء فاطمأنوا.

يهيئ ربك سبحانه الأسباب: {ألم تر إلى الملأ من بني إسرائيل إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكًا نقاتل في سبيل الله}.

ثم يصفي الصفوف ويخلصها: {ومن لم يطعمه فإنه مني}.

ثم يثبت الأقدام: {قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله}.

ثم يأتي بالنصر: {فهزموهم بإذن الله}، فالأمر كله منه وبه وله وإليه عز وجل.

{ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبرًا..}

هذه نقطة ضعف أولئك القوم الكافرين، أنهم (جالوت وجنوده)، وتلك نقطة قوة هؤلاء المؤمنين أنهم يقولون: {ربنا..}، فأولئك يقاتلون من أجل شخص، وهؤلاء يقاتلون من أجل الله وفي سبيل الله.

{ربنا أفرغ علينا صبرًا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين}.

الإيمان بالحق، واستمداد القوة من الحق عدة هي أعظم عُدد القتال.

{قالوا ربنا أفرغ علينا صبرًا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين}

هذه الثلاثة مطلوبة في الميدان:

- الصبر على مشاهدة المخاوف والأمور الهائلة.
- امتلاك أسباب الثبات المعنوية والمادية.
- زيادة القوة في المؤمنين على الكافرين، وتلك القوة أحد أنواع عديدة، وقد كان لتلك الفئة القليلة بعضها.

{وانصرنا على القوم الكافرين}

يطلبون النصر لا للانتقام منهم بسبب ما فاتهم من حظ ونصيب.. ولكن لكفرهم وضلالهم وغيهم.

{فهزموهم بإذن الله وقتل داوود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء}.

{وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكًا..}

المناصب أمانات؛ إذا وليها الكفء.. حفظها، وإذا وليها غيره.. أضاعها.

وفرض على العقلاء - فضلًا عن المؤمنين - أن ينتدبوا أهل الكفاءات ويضعوهم حيث يجب أن يكونوا.

{فهزمزهم بإذن الله}

فسبحان من قضى على الفار الهارب ليدركه الموت، وقضى لمن أقبل مجاهدًا بالحياة الكريمة والنصر والظفر.

{فهزموهم بإذن الله}

ولو ظلوا في أماكنهم لا يبرحونها يخشون القتال لظلوا في ذلهم يترددون مسلوبة حقوقهم.

فلما توكلوا على الله وأخذوا عدتهم الشرعية والعادية قدر الطاقة كانت هذه العاقبة الحميدة لهم.

{فهزموهم بإذن الله}

المؤمن ينفذ مشيئة الله الخيرة ويحقق قدره النافذ، ومن ثم وجب عليه أن يراعي الباعث والغاية وما بينهما.

{فهزموهم بإذن الله}

وهكذا، متى صدَق العباد ربهم صدَقهم، ومتى أخلَصوا خلّصهم، ومتى سعوا بجد وصّلهم، ومتى أخذوا بأسباب النصر نصرهم.

{وقتل داود جالوت}

الجهاد في سبيل الله تعالى ميدان يكشف عن المواهب المستورة ويبرز المهارات والعبقريات المخبوءة.

{وقتل داود جالوت}

وكان الجهاد في سبيل الله باب الفتح على داود: وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء، لا غرو أحب داود الدروع ولزم صناعتها وفتح الله له في ذلك فتحًا خاصًّا: {وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ}.

{ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض}.

إقامة الجهاد في سبيل الله رحمة من الله بعباده، بها يمنع انتشار الشر، وتفشي الفساد، وشيوع الظلم.

{ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض}

لطف من الله تعالى أن يبعث من عباده المخلصين من يقلم أظافر المفسدين لئلا يندثر العالم.

وقد اتفق العقلاء على أن بتر عضو فاسد من أجل حياة بقية الجسد شيء صالح نافع بل ضروري.

ولمثل هذا كان الجهاد في سبيل الله.

(ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ولو شاء اللَّهُمَّ قتلوا ولكن الله يفعل ما يريد}.

تلك الحياة كلها في يد الله يصرفها حيث يشاء، ومن ذلك القتال، لو شاء الله حجز المتقاتلين لكن لهم في حصوله حكمة، علمها من علمها وجهلها من جهلها.

{ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات..}

وشاء الله ما أمر بالقتال بعد وضوح الحجة، لكنه يحب المبالغة في إعذار عباده، تبارك الوهاب.

{ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر}
إذا وصل الاختلاف إلى حد الكفر والإيمان يتعين الاقتتال، ليدفع الإيمان الكفر والهدى الضلال والخير الشر والصلاح الفساد.
وهذا يقع بمشيئة الله تعالى وإذنه، لإعلاء كلمة الله ونصر الحق وبث الهدى.

{ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر}.
إن الكافر هو الذي ترك سبيل الأنبياء ولو اتبعوا الحق لسلموا وسالموا.

{ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر}.
فليحذر المسلمون أن يقع فيهم الاختلاف، فيقع الاقتتال بينهم على إثره.
ما وقع فيمن قبلهم من اليهود والنصارى وغيرهم.

{ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات}
{ولو شاء الله ما قتتلوا}
وهذه هي مشيئة الله الكونية القدرية جل جلاله.

وأما مشيئته الشرعية التي يحبها ويأمر بها سبحانه وتعالى فهي الاجتماع والاتفاق ونبذ الخلاف واجتناب الافتراق.
فلا يليق بالمسلم أن يسلم للقدر الكوني وهو مأمور بمدافعته على حساب القدر الشرعي وهو مأمور بالتسليم والخضوع له.

{للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضربًا في الأرض}
حبسهم الجهاد ونصر الدين، فمنعوا أنفسهم عن التصرف في شيء لأجله: وقفوا أنفسهم على السعي في سبيل الله، مع الفقر، وشدة التعفف، وترك المسألة.

فهؤلاء هم أولى الناس أن تجعل النفقة فيهم، وهذا أمر منه تعالى للمؤمن أن يبحث عنهم ليجدهم.

{مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة..}.
فهذا جزاؤه لمن أنفق ماله على نفسه في الجهاد في سبيل الله تعالى، وفي هذا التحريض العظيم على ذلك.